

## الملتقى الدولي: الإساءة إلى المقدسات الإسلامية بين سياقات حرية التعبير وخطاب الكراهية 29/28 ديسمبر 2021

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر  
الخطاب الحداثي والمقدس الإسلامي من خلال بعض النماذج الفكرية  
العربية

Modern discourse and the Islamic sacred Through some Arab  
intellectual models

مختار حسيني \*

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر m.hoceini@crsic.dz

تاريخ الإرسال: 2022/05/10 تاريخ القبول: 2022/09/06 تاريخ النشر: 2022/10/01

### الملخص:

يزخر الفكر العربي اليوم بكم من المتناقضات تتخذ عددا من الشعارات والمفاهيم، ويمثل الفكر الحداثي العربي اليوم إحدى أهم بؤر هذا التناقض، خاصة فيما يتعلق بمفهوم المقدس، ومفهوم الدين، ومفهوم العلم والموضوعية والمناهج الدراسية، حتى إنه تبدو للوهلة الأولى العلاقة بين المقدس والمفاهيم الحداثية علاقة تنافر وصراع، إلا أن استقراء التاريخ والنصوص المؤسسة للفكر الإسلامي تبرز في الجانب الآخر نوعا من التناقض الداخلي في البنية الفكرية الحداثية ذاتها. وإن الكشف عن هذا النوع من التناقض يعد إحدى السبل الكفيلة بالرد على كثير من ادعاءات الحداثيين، ونقد خطابهم المتحامل على الدين وعلى مقدسات المسلمين بشكل عام، والذي لا نراه إلا محاولة لتقويض ثوابت الأمة وتفكيك مرجعياتها، كسبيل لتسهيل عملية هدمها التي لم يتمكن حتى الأعداء من تحقيقها في أضعف المراحل التي مرت على الأمة الإسلامية، وأن الحداثة العربية لا تحمل من التحديث والتجديد إلا الاسم، والمروق من ثوابت الأمة ومقدساتها، وأن خطابها ما هو

في الحقيقة إلا نوع من بيع الأوهام باسم العلم وتحرير الفكر ورفض التقليد واستبدال الاتباع بالإبداع.

يطرح هذا البحث إشكالية الخطاب الحداثي، وهل في موقفه من المقدس تناقض يتنافى مع مبادئ الحداثة؟ وهل في العالم العربي اليوم إمكانية للحديث عن فكر حداثي متزن ومعتدل؟ وهل المقدس في أي أمة يحمل بذور التخلف دائما؟ أم إن المسألة تحتاج إلى بحث متعمق في الخصوصيات والتفاصيل قبل إصدار الأحكام؟ وهل يمكن الحديث عن أي تطور وتقدم في ظل تغييب المقدسات بحجة حرية الفكر وحتمية النقد؟ واعتمدنا في محاولتنا للإجابة عن هذه الإشكاليات المتناسلة المنهجين التحليلي والوصفي، واستعنا أحيانا ببعض المناهج المساعدة؛ كالمنهج الاستقرائي والمقارن، كل ذلك لأجل تحقيق الموضوعية العلمية، وتحصيل أفضل النتائج قدر الإمكان، والله المستعان.

الكلمات المفتاحية: خطاب، حداثة، إسلام، مقدس، علم.

### Abstract:

Arab thought today abounds with many contradictions, which are based on slogans and concepts, Arab modern thought is one of the most important foci of this contradiction, especially with regard to the concept of the sacred, the concept of religion, the concept of science, objectivity and school curricula, so that the relationship between the sacred and modernity concepts seems to be a relationship Dissonance and conflict, but through induction we find the contradiction is internal in the modernist intellectual structure itself. Revealing this contradiction is a response to many of what the modernists claim, and in it is a criticism of their anti-religion and sacred discourse, which aims to destroy the constants of the nation and its references, which even the enemies have been unable to. In

order to sell illusions in the name of science and the liberation of thought.

This research raises the problem of modernity discourse, and is its position on the sacred a contradiction, incompatible with the principles of modernity? Is it possible to talk about a moderate modernity thought? Is backwardness related to the sacred always? Or is it necessary to research in depth before making judgments? In answering these problems, we adopted the analytical and descriptive approach, and sometimes used the inductive and comparative approach, in order to achieve objectivity and obtain the best results.

**Keywords: discourse; modernity; Islam; sacred; science.**

#### مقدمة:

طالما كان التراث العربي محل اهتمام الدارسين العرب وغير العرب، المقدس منهم لهذا التراث والمدنس، والمثمن له والمنتقص، وما ذلك إلا لعظمة هذا التراث وتميزه، وأنه المنطلق لكل بناء حديث، حتى وإن كان ذلك بغاية إقامة بديل عنه أو نقيض، إلا أنه يجب التأكيد بداية على مسألة نراها قاعدة للانطلاق، وتقوم عليها كل النتائج اللاحقة، هي أن سعينا في ربط المفاهيم المعاصرة بالتراث ليس الغاية منه مساءلة التراث العربي الإسلامي بطريقة إسقاطية، تترصد المفاهيم الحديثة بما تحمله من عصرنة في جسد له خصوصيته، فتغفل عن المسافة بين العصرين، وفي الوقت ذاته فإننا - رغم هذا التحفظ - لا ننكر على أصحاب هذا التوجه، ذلك أن غاية الأمر أننا نتغيا - من خلال وجهة نظر خاصة - الحفاظ على استقلالية السياقات، ونؤكد على أثرها في المعارف آناء المساءلة، ونروم دراسة تعالق التراث بالحدثة، دراسة قوامها المفارقة والمعانقة معا، وبمنهجية تنأى عن الإسقاط والقبولة، وتغض الطرف عن دعاوى الانفصام عن التراث والقول ببداية معارفه.

## 1. تحليل النص القرآني بين الممارسة التراثية والحادثة

تعددت تعريفات النص قديما وحديثا، وتباينت الآراء حول ماهيته وحدوده وأشكاله ومتعلقاته، خاصة في ظل ثنائية التراث والحداثة<sup>1</sup> المطروحة بالحاح؛ سواء على مستوى المفهوم ذاته أو على مستوى طبيعة بحثنا، ولذلك ارتأينا ربط المفاهيم الحديثة للنص بمفاهيمه في التراث العربي الإسلامي.

إننا لا نعني بالتراث مطلقا نصوص الوحي من قرآن وسنة، ذلك أن التراث يعني التاريخية، ويقتضي الصفة البشرية، وهو ما تتنزه عنه نصوص الوحي، وأن غاية ما نقصده بالتراث هو ما كان نتاج عقول العلماء، لأنه لا يخرج عن إطار الجهد البشري، حتى وإن تعلق بالقرآن الكريم أو السنة المطهرة، وأن نصوص الوحي وحدها هي التي تتصف بالقدسية، وتستعلي بمصدرها الإلهي عن محددات الزمان والمكان.

إن البحوث اللغوية عند العرب إنما نشأت أساسا لخدمة كتاب الله، وإن القرآن كان باعنا عليها، ولذلك نجد مفهوم النص في التراث مرتبطا في عمومته بالقرآن الكريم، وربما كان كتاب الله في شكله النصي من أهم الأسباب التي دفعت العلماء العرب إلى الاهتمام بهذا المفهوم، حتى غدت النصية سمة بارزة في تراثهم. ومثلما هي هيمنة مجال البحث على التعريف وتوجيهه له حديثا فالأمر ذاته نجده قديما، حيث يأخذ التعريف المنحى الذي يحدده مجال البحث، ولذلك تعددت تعريفات النص في التراث بتعدد الاهتمامات؛ ففي مجال أصول الفقه نجد عند الأصوليين مصطلح النص والخطاب الشرعي والنص الشرعي أو نصوص التشريع، وكلها "عِبَارَةٌ عَنْ خِطَابِ الشَّرْعِ إِذَا تَعَلَّقَ بِأَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ"<sup>2</sup> ونجد الإمام الشافعي يكتفي عن النص بقوله: "بَيِّنٌ فِي الْآيَةِ، مُسْتَغْنَى فِيهِ بِالتَّنْزِيلِ عَنِ التَّفْسِيرِ"<sup>3</sup> ودون الحديث عن المراد بالتعريف من جهة الدلالة فإن الواضح أن المقصود به هو نصوص الوحي دون سواها. يقول ابن حزم: "هو اللفظ الوارد في القرآن أو السنة، المستدل به على حكم الأشياء، وهو الظاهر نفسه، وقد يسمى كل كلام يورد كما قاله المتكلم به نصا"<sup>4</sup> ويقول الجويني: "النص ما لا يتطرق إلى فحواه إمكان التأويل، وينقسم إلى ما

ثبت أصله قطعاً، كنص الكتاب والخبر المستفيض، وإلى ما لم يثبت أصله قطعاً، كالذي ينقله الآحاد ولا مجال [لتأويل] في النوعين"<sup>5</sup>

ثم إن الأصوليين يقسمون النصوص إلى نوعين:

أ) **نصوص وحي:** وهي إما نصوص قطعية من جهة الثبوت أو الدلالة أو هما معاً، وإما نصوص ظنية من جهة الثبوت أو الدلالة أو هما معاً كذلك، والسنة النبوية تحتل كل ذلك، أما القرآن فكله قطعي الثبوت، إلا أنه على مستوى الدلالة فيه ما هو قطعي وما هو ظني كالمتشابه.

ب) **النصوص الدينية البشرية:** المتعلقة بالنص القرآني أو النبوي؛ مثل النصوص الشارحة والاجتهادات ورسائل الفقه والتوحيد وكتب التفسير وغيرها.

## 2. النص والخطاب في التراث:

مما هو قمين بالتذكير أن بعض الحدائين العرب قسموا النص الديني إلى نص أصلي هو القرآن، ونص ثانوي يشمل النص الثاني أي السنة النبوية باعتبارها شرحاً للنص الأصلي، ونصوصاً ثانوية أخرى تالية هي اجتهادات العلماء، وذهبوا إلى أن النصوص الثانوية كلها قد تحولت بفعل عوامل ومحددات اجتماعية وتاريخية إلى نصوص مرجعية، وأنها بما فيها النص الأصلي تدخل جميعها في مسمى التراث<sup>6</sup>.

إن أهم ما يتضح لنا من مفهوم النص في التراث الإسلامي أمران: أولهما أن النص في التراث مرادف للخطاب، وهي خصوصية للقرآن الكريم دون سواه، ذلك أن مصطلح النص عند علماء الإسلام لا يطلق لصفة يتقاطع فيها مع غيره، وإنما هو من باب التسمية والتوصيف لا التصنيف، فإذا قيل النص فهم منه النص الموحى، لذلك لا يجوز مقارنته بالنص بمفهومه الحديث، إلا أنه من جهة المقارنة التي تتجاوز المسميات إلى الماهيات يمكننا القول إن التعامل مع النص القرآني في التراث يجعل منه بديلاً للخطاب بمفهومه الحديث، فالقرآن الكريم وإن كان نصاً في شكله إلا أن الممارسة القرائية التراثية تتعامل معه باعتباره خطاباً لا نصاً.

ومن تلك السمات الخطابية في التراث التفسيري اعتماد المفسرين في تفسير القرآن الكريم - إضافة إلى المكون اللغوي - على ما هو خارج لغوي، بداية بتفسير الرسول ﷺ ثم الصحابة والتابعين وأسباب النزول والزمان والمكان (كالقرآن المكي والمدني) وترتيب النزول وغيرها من العناصر، ولا انفصال في ذلك بين السمات النصية للقرآن الكريم وسماته الوظيفية، ولا بين ما توفره لغة النص وما يفرضه وجوده السياقي وطابعه التواصلية.

وثانيهما عدم التفريق بين القرآن المكتوب المدون بين دفتي المصحف والقرآن بوصفه نصا شفويا متلوا في حالة نزوله الأولى، وبقائه محفوظا في صدور الصحابة، متداولاً بينهم مشافهة قبل جمعه وتدوينه. وإنما أشرنا إلى هذه المسألة نظراً لما عرفه مفهوم النص الديني حديثاً من ارتباط بالتثبيت بالكتابة في مقابل الخطاب، ومن ذلك تأكيد بول ريكور بأن "النص خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة"<sup>7</sup> الأمر الذي استغله بعض الحداثيين في التفريق بين القرآن قبل التدوين وبعده، وعلى أساس ذلك التفريق يختلف التعامل والاعتبار، فالقرآن بالنسبة لهم قبل التدوين تنزيل متعلق ببيئته ومحاطبيه، وقد انتهى وانتهت مبررات وجوده، والقرآن المكتوب إنما هو نص رسمي مغلق ينبغي أن يخضع للمتلقى بعيداً عن النص الشفهي (التنزيل).

إضافة إلى إثارة شبهة حدوث الاختلاف بين النصين بفعل النشاط التدويني، وما يمكن أن يضيفه أو يضيفه على النص الأصلي<sup>8</sup> مهملين في المقابل عناصر الحفظ التي لم تتوفر في تراث غيره، مثل حفظه في صدور الرجال كمّاً ونوعاً، ونقله بالتواتر من جيل إلى جيل، وبالسند المتصل إلى ربّ العالمين، ودقة الجمع والتدوين، وغيرها من عناصر الحفظ وشروط السلامة من الاختلاف بين النص الشفوي والنص المكتوب.

ثم إنه بإمكاننا رصد بعض الشبهات التي أثارها بعض الحداثيين والرد عليها من خلال عدد من خصائص النص القرآني المتمثلة في العناصر التالية:

### 3. طبيعة النص القرآني

مما يجب الإشارة إليه هنا أن مصطلح "النص الديني" هو استعمال جرى كثيرا على ألسنة الحدائين تفاديا منهم للقدسية التي تتضمنها صفة "قرآن"، وتأثرا بالغرب في موقفهم من الإنجيل. أما النص القرآني فهو كتاب الله وكلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين، ولا في جهة من جهاته، متنزها عن جميع مظاهر الحدوث<sup>9</sup>.

وقد ساد هذا الفهم للنص القرآني في التراث التفسيري على وجه العموم، يقول المناوي: "القرآن: عند أهل الفقه: اللفظ المنزل على مُجَّد للإعجاز بسورة منه، المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلا متواترا. القرآن عند أهل الحق: العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها"<sup>10</sup>

والقرآن الكريم من هذه الزاوية وحدة خطابية شاملة ومنظومة متكاملة، بمكونها اللغوي وحمولتها المعرفية وبعدها التواصلية، تتضمن معارف ومبادئ عقائدية تنظم حياة الإنسان بأبعادها الدينية والكونية، وتحمل خاصية الرسالة وطابع التبليغ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة 67]، لأجل التأثير في المتلقي فردا وجماعة، روحا وعقلا، وهو فوق ذلك خطاب متسام عن خطابات البشر، له صفة القدسية الذاتية والطبيعة المعجزة.

كل ذلك في إطار من الانسجام في سوره وآياته وشكله ومضمونه ومقصديته والواقع الذي يسعى إلى تشكيله. إنه مكتف بذاته متماسك البنية المعرفية الداخلية، محقق لطابعه النبوي المنتظم؛ فالواضح المحكم فيه بمثابة الدليل لتفسير الغامض المتشابه، والنص في كليته ووحدته يسهم في تقييد المطلق وتخصيص العام وتفصيل المجمال. فالنص القرآني نص منسجم متناسب، آخذ بعضه برقاب بعض، يكمل بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا ويحيل بعضه على بعض ويصدق بعضه بعضا، قال الزركشي: "عند التأمل يظهر القرآن كله كالكلمة الواحدة"<sup>11</sup>

وانتبه الأوائل إلى انسجام خطابي قصدي، يتعلق بالمتلقي في مستوى آخر مختلف تماما، لقد صنفوا المتلقي في صلته بالنص القرآني صنفين: متلق للنص كله، تتحصل لديه مقاصد الخطاب في

كليته وأجزائه، وقارئ آخذ بجزء من النص وليس بالنص كله، فتتحقق لديه كبريات المقاصد وضروريها دون جزئياتها، وهو ما يمثل نمذجة مقاصدية يحمل من خلالها الجزء خصائص الكل.

إن النص القرآني ذو طابع يستجيب لكثير من المفاهيم الخطابية كمفهوم السياق ومفهوم القصدية، فهو منفتح على الوقائع الحياتية المتشابكة، وعلى الأشخاص المخاطبين في المناسبات والطبقات المقامية المختلفة المتباينة<sup>12</sup> كما يتضح هذا البعد "من عدة جهات: منها اختلاف دلالات ألفاظه وتنوع بناءه التركيبية وتباين مستوياته التواصلية الخطابية، بحسب أحوال المخاطبين به؛ بين مؤمن به، وبين شاك متردد، وبين كافر لا يرجى منه إيمان، ومعاند قد يرجى رجوعه عن عناده... وكل حالة من هؤلاء تتطلب تركيباً لغوياً خاصاً، جرياً على بعض القواعد الأصولية النصية"<sup>13</sup> ومن ثمَّ يمكننا القول: إن النص القرآني في التصور الأصولي ثلاثي الأبعاد: النسق اللغوي - الوحدة العضوية - البعد التداولي<sup>14</sup>

يفضي بنا هذا التكامل والانسجام في النص القرآني إلى القول بضرورة التكامل والانسجام القرآني، الذي من الضروري أن يناسب طبيعة النص؛ فلا بد أن تكون القراءة لغوية معرفية تواصلية معتبرة بقدسية النص، حتى لا تخلَّ بالاتساق الأكبر الذي راعاه القرآن الكريم والمقاصد التي توخاها، والأبعاد المختلفة للنص القرآني بداية بوصفه قديماً غير مخلوق انسجاماً مع مقتضى التقديس، ولأن الحوادث ظواهر محدثة يعترئها ما يعترئ العالم والأفعال.

### 1.3. من جهة الكتابة والنطق

حديثنا عن النص وإشارتنا إلى تأكيد بعضهم على صفة التثبيت بالكتابة في مسمى النص أمثال بول ريكور - تميزاً له عن الكلام الشفوي - فيه تنبيه إلى تفريق بعض الحداثيين - كما أسلفنا - بين القرآن في عهد النبي ﷺ قبل أن يدون في مصحف جامع والقرآن بعد التدوين، وكأنه قبل التدوين نص شفوي (خطاب)، وبعد التدوين نص مكتوب. وعليه فالسؤال الذي نطرحه هو: هل القرآن المكتوب بين دفتي المصحف في عصور ما بعد التدوين نص أم خطاب؟

بداية نقول إن آراء الدارسين - خاصة من تأثر منهم بمناهج الغرب القرائية - تباينت في نظرتها للقرآن الكريم بعد التدوين، ففي رأي بعض الحداثيين هو نص مكتوب، فمحمد أركون على سبيل المثال يقسم القرآن إلى ثلاثة أقسام: القرآن المكي والقرآن المدني والمصحف الذي يقول فيه: "أفضل أن أدعوه بالنص الرسمي المغلق"<sup>15</sup> استبعادا لتسمية المصحف بالقرآن، لأن "القرآن" - حسب الحداثيين - توصيف متعلق بالخطاب الشفوي، كما يلحون بكثير من الشبه حول مسألة التدوين وعلميتها؛ كعملية جمع النسخ وإحراقها، ووساطة المدونين والعلماء بين النص وعامة الناس، وسبقهم المستشرقون في مثل هذا الصنيع، خاصة فيما يتعلق بحفظ القرآن، وهل حفظ القرآن فعلا من الزيادة والنقص؟ وفي رأي الحداثيين أن هناك نصوصا كثيرة تم إتلافها عند جمع القرآن، لأن الجمع لم يكن شاملا لكل النصوص، وأن هناك إضافات تعمّد القراء إضافتها، إضافة إلى رفض الطرفين لظاهرة الاستقرار والاستمرار التي طبعت النص الإلهي، واهتمام كليهما بالجانب التاريخي وبظاهرة الوحي، وهو ذات ما ذهب إليه المستشرقون أمثال جولد زيهر (أو تسهر) المجري الذي يقول: "فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن"، ويقول: "ليس هناك نص موحد للقرآن، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحل التفسير. والنص المتلقى بالقبول (القراءة المشهورة)، الذي هو لذاته غير موحد في جزئياته، يرجع إلى الكتابة التي تمت بعناية الخليفة الثالث: عثمان"<sup>16</sup>.

لقد "ركز المستشرقون في كليلهم هذا الاتهام للقرآن الكريم على محورين اثنين هما: تدوين النص القرآني وجمع نسخه، واختلاف القراءات القرآنية"<sup>17</sup> وهو نفس المسار الذي اتخذته الحداثيون فوقع الحافر على الحافر. إلا أن الحداثيين استدعوا إليها ما جادت به الدراسات اللسانية والفلسفية الحديثة من مفاهيم دثروا بها اهتماماتهم، لتبقى غاية كثير منهم هي بلوغ ما لم يبلغه المستشرقون، سواء علموا ذلك أم لم يعلموا، ولعلنا لا نبالغ إن نعتنا هذه الفئة من الحداثيين بالمستشرقين الجدد، واعتبرنا توجهاتها استشراقا ثقافيا معاصرا، خاصة أنها "تجعل من الدراسات الاستشراقية مصادرها الوحيدة التي تعود إليها وتتكى عليها في إصدار أحكامها الخطيرة"<sup>18</sup>.

والاستشراق كما هو معلوم لا يزال مستمرا، ولم تتغير فيه إلا مادة البحث، "فلم تعد الدراسات الاستشراقية تركز على العقيدة والتاريخ فقط، بل اتجهت إلى الأوضاع الحاضرة والنهضة أو الصحة الإسلامية" ومساءلة القرآن والسنة بآليات غريبة لا تفرق بين نص ونص<sup>19</sup> يقول المستشرق الأب جومي صاحب كتاب "تفسير المنار القرآني": إنه بالرغم من تطور الحياة السياسية والثقافية أواخر القرن 19م وأوائل القرن 20م فإن التجديد الديني بقي مشدودا إلى الماضي، إذ لم يستعمل وسائل النقد الحديث في تفسير النص القرآني، ولذا فإن التجديد لم يكن في مثل مستوى ما حدث للفكر المسيحي في القرن 19م<sup>20</sup> ومع ذلك فإننا نقف من الاستشراق موقفا موضوعيا؛ فثمن ما كان منها بحثا علميا، خالصا من كل مرجعية دينية وسياسية، مما عاد بالنفع على المسلمين أنفسهم، مثل تحقيق المخطوطات وفهرسة ألفاظ القرآن والحديث. ككتاب "الدعوة إلى الإسلام" لتوماس أرنولد، و"المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف" في سبعة مجلدات لـ أ.ي. ونسك، كما يجب الاعتراف أنه لولا بعض المستشرقين لأتى الدهر على كثير من عيون الكتب الإسلامية. وناوئ بالمقابل أصحاب الأقلام المسمومة، الذين صدروا في دراساتهم وأحكامهم عن مرجعية صليبية متعصبة.

إن النص من منظور تحليل الخطاب ليس ما يقابل الشفوي ويطابق المكتوب، وإنما الفرق بينه وبين الخطاب هو السياق، "فالخطاب سياقي contextualisé"<sup>21</sup> أي إنه نص في سياق، والسياق لا يقتصر على مقام التنزيل، بل يتعلق أيضا بمقام التلقي، وأن دراسة الخطابات تهتم بالمتلفظ كما تهتم بالمتلقي، فهي ترفض الاقتصار على أحد الجانبين في التحليل، وتسعى إلى تحليل الخطاب في ظل العلاقة القائمة بينهما<sup>22</sup> وأن أساس تلك العلاقة هو التفاعل الخطابي الذي هو "سلسلة من الأحداث يكون فيها عدّة أشخاص هم المعنيين بوصفهم فاعلين"<sup>23</sup>

إن الخطاب هو عملية بناء لفضاء زماني ومكاني، وفي الوقت ذاته هو توجيه وتحديد لشبكة من القيم المرجعية، أو هو نظام معلمي Système de repérage يحدد أطراف الخطاب وزمانه ومكانه، ويهتدي المحلل من خلاله أيضا إلى رسم العلاقة بين المتكلم والمخاطب وتحديد نوعها وتفسير طبيعتها، أو تعليل موقفه منه بالنظر إلى الخطاب ذاته.

### 2.3. من جهة اللفظ والمعنى

تتعلق مسألة اللفظ والمعنى بالخطاب القرآني وبطبيعة النزول، وقد أكد علماء الإسلام على هذا البعد في النص القرآني منذ تعريفهم للقرآن الكريم بأنه من الله لفظاً ومعنى<sup>24</sup> تمييزاً له عن الحديث النبوي والحديث القدسي، ولذلك احتج علماء النحو بالقرآن دون الحديث<sup>25</sup> وأتفق على التعبد بتلاوة القرآن دون غيره، وأن السنة شارحة للقرآن، وأن القرآن لفظاً ومعنى من الله تعالى، بل إن خطه وترتيبه في المصحف أمر وقفي لا اجتهد فيه لبشر، اللهم إلا التشكيل والتنقيط والتقسيم إلى آثمان وأرباع وغيرها. واللفظ يتعلق به المعنى، وقد يكون حقيقة أو مجازاً أو شرعياً أو عرفياً... مثلما صنفه الأصوليون.

### 3.3. قدسية النص القرآني

يعد النص القرآني محور علوم المسلمين وغاية أرحمهم، فلم تقم علومهم إلا خدمة له، لما له من قدسية في نفوسهم، فالنص القرآني هو كلام الله، وحينما يكون المخاطب هو الله فلا بد أن تأخذ المتلقي هالة قدسية المخاطب، فتقع في نفسه قبل أن يقبل على تحليل كلامه. وهو ما نلمسه عند المفسرين عموماً، من خلال استعظام أمر التفسير والخرج من التوقيع عن الله تعالى، فضلاً عن حرصهم على التأدب بآداب تلاوته؛ من طهارة وتدبر واستحباب للتطيب وسواك واستقبال للقبلة والتزام بأحكام ترتيله وعدم الانشغال بغيره أثناء تلاوته، وإيماناً بحصول الثواب على تلاوته؛ لأن "التَّائِيَّ لِلْكَلامِ بِمَنْزِلَةِ الْمُكَلِّمِ لِذِي الْكَلَامِ"<sup>26</sup> ومما لا شك فيه أن هذا التحرج إنما أملتته قدسية النص القرآني وخصوصية التعامل معه، فالمسألة في تصور المتلقي لا تقف عند حد الأدب مع الله وإنما تتجاوزه إلى مخافة الزلل في متعلقات الاعتقاد، فلا يأمن على نفسه غضب الله، خاصة مع العلم بقول النبي ﷺ: "من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"<sup>27</sup>

من أجل ذلك كله تميزت نظرة المفسرين وعلماء الإسلام للقرآن الكريم عن نظرة غيرهم ممن غابت في تصوراتهم قدسية القرآن أثناء عملية التحليل، فاختلفت النتائج باختلاف المنطلقات. فبعض الحداثيين أرادوا تثبيت النص القرآني بلحظة النزول ودراسته دراسة تزامنية خلافاً لعلماء

الإسلام الذين تعاملوا معه وفق خاصية الإطلاق والاستغراق، دراسة تستوعب زمن النزول مثلما تستوعب زمن التلقي، وتعتد بما هو ثابت في النص متعلق بالثابت في الإنسان والوجود، وبما هو مرن مناسب للمتغير في الإنسان والوجود. وشتان بين النظرتين.

ثم إن قدسية النص القرآني هي أيضا قدسية ذاتية مستمدة من طبيعة النص، فالقرآن ذاته ينص على كيفية التعامل مع آياته، وليست قدسية مكتسبة، مضافة عليه من خارجه بفعل عوامل تاريخية مثلما يدعي بعض الحداثيين أمثال نصر حامد أبي زيد الذي يرى أن القدسية ليست ذاتية في النص القرآني، وإنما أضيفت. يقول: "حينما تحول القرآن إلى شيء له قداسته بوصفه شيئا، تحول إلى "مصحف"، إلى أداة للزينة"<sup>28</sup>

وأما حرص كثير من المفسرين على ربط الإعجاز بالنص فهي مسألة في غاية الأهمية، لأن طبيعة النص تفرض وجودها في التحليل، لذلك لم يذهبوا مذهب من قال بأن إعجاز القرآن متعلق بما هو خارج النص، وإنما اعتبروه أمرا داخليا، واشتهر عندهم أن التحدي إنما وقع بالنظم - مثلما يقول عبد القاهر الجرجاني - وبصحة المعاني وتوالي فصاحة الألفاظ<sup>29</sup>

### 4.3. القِدم والحدوث

النص القرآني نص مقدس عند المسلمين، وهو ما أهله إلى أن يكون مرجعية ذات سلطة، سعى بعض المعاصرين إلى تفويضها من خلال تكريس مبدأ البحث في النص القرآني من جهة التشكل والتثبيت، بعيدا عن مبدأ التقديس، تحريا - في رأيهم - للموضوعية العلمية، أما طبيعة النص القرآني وتشكله في التراث العربي فيصب في التصور التواصلية، باعتبار أن الله تعالى قد أنزل إلينا القرآن الكريم، فبعث به رسوله الكريم، وأنه أنزل على سبعة أحرف، ثم تم جمعه وشكله ونقطه وتحزيه وتعشيره، وأنه من الله لفظا ومعنى، وأن إعجازه في لفظه ومعانيه؛ وهو خلاف ما يدعيه بعض الحداثيين، ذلك أن أي شك أو محاولة لإعادة اللفظ القرآني إلى غير الله عز وجل - كادعاء أن لفظه يعود إلى النبي محمد ﷺ - يعني أنه حدث، وهو ما سعى قبلهم المعتزلة إلى إثباته، وسار على نهجهم بعض الحداثيين. مثل: نصر حامد أبي زيد ومحمد أركون، وإن اختلفت النوايا والمقاصد. إذ يستغل الحداثيون صفة الواقعية ومن ثم الحدث لإثبات تاريخية النص القرآني، وتعني التاريخية

خضوع القوانين للزمان والمكان، بما يثبت نسبيتها وعدم شمولية أحكامها، ومن ثم فهي لا تصلح إلا لبيئتها الاجتماعية التي ولدت فيها<sup>30</sup> وفي ذلك تثبيت للنص القرآني في نقطة زمانية معينة، وهو ما يناقض طبيعة القدم وصفة الأزلية.

#### 4. تكامل خطاب الوحي

تتكامل نصوص الوحي قرآنا وسنة، من حيث هما وحي منزل من الله عز وجل، وأن القرآن معجز بخلاف السنة، وأن السنة شارحة للقرآن، مبينة لما لم ينص عليه، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: 1-5]. وأن القرآن ينسخ بالسنة والسنة تنسخ بالقرآن.

إلا أننا وإن كنا نؤكد على تكامل خطاب الوحي فإننا نؤكد أيضا على التفريق بين ما يصدر عن النبي ﷺ من سنة وتشريع هو محض وحي إلهي، وبين ما هو خلاصة اجتهاد شخصي للنبي ﷺ نابع من بشريته عليه الصلاة والسلام، فيما يتعلق بأمور الدنيا بعيد عن التشريع، مثل حادثة تأبير النخل، وتروي كتب السنة أن النبي ﷺ تراجع عن كثير من آرائه الشخصية كحادثة تأبير النخل<sup>31</sup> لكنه لم يتخلَّ مطلقا عن آية قرآنية واحدة حتى في الظروف الصعبة، كما وقع في صلح الحديبية حين عدل عن الحج بعد أن اتخذ له أهفته قبل سنة، لأن الوحي قد أمره بذلك. ومن الطبيعي أن نبحث هنا في وضع فاصل دقيق واضح بين هذين الأساسين في ضميره ﷺ كيما نزيد في إيضاح الظاهرة القرآنية<sup>32</sup> ولأجل أن يتضح لنا دور الخطأ في إثبات المصدر الإلهي للقرآن الكريم.

#### الخاتمة :

من خلال ما تم عرضه في صفحات هذا البحث تبلورت لدينا جملة من النتائج المتوصل إليها، نوردتها في شكل نقاط موجزة، كالآتي:

1- إن ربط القديم بالحديث فيما تخطه أقلام بعض الحداثيين لا يخلو من صدى بعض القضايا القديمة، حيث ما فتئوا يبعثون أقوال القدماء من جديد، ويقفون على نافذة التراث يتصيدون الحجج، ويكيلون التهم، وهو ربط وخز بالمقابل العقل الإسلامي الراكد، وسمح لأصحاب الفكر الوسطي - في رأينا - بتحسين الفهم والتحليل، وإدراك نوعي للقيم التي يحفل بها التراث، ويمد أمام الباحثين أفقا يمكن أن يحدث لديهم نوعا من التكافؤ - المنعكس على الذات - بين الماضي والحاضر، فيثمر شكلا من أشكال الحوار بين الذات وانتمائها، وبين الذات ومجريات الحياة من حولها، بطريقة تبعث على المرونة والاعتدال، وتدرأ ذرائع العنف والإكراه.

2- إن هذا المنحى في سبر أغوار الماضي لا يمثل اختبارا لنصوص التراث وحدها، في قدرتها على استيعاب الوافد الغريب، بل إنها بقدر ما تفعل ذلك فهي تثبت ذواتنا نحن، بحكم الهوية والانتماء، وتبصر إدراكنا لما يحضر فينا وافدا من غيرنا، بحكم المعاصرة التي لا نملك في قبولها خيارا رغم ما تحمله من إجحاف، ومن ثم فهي تسهم في تغيير نظرتنا لأنفسنا، وتوسع أفق طائفتين متنا: طائفة قُزمت ماضيها، وأخذت بكل وافد جديد، وطائفة انغلقت على نفسها، وحصنتها من كل حادث في العالم حولها.

3- أن من مظاهر العجز تغيب الاهتمام في الفكر العربي المعاصر بالنص القرآني وبما أنجز حوله من نصوص تفسيرية متنوعة بحجة التقديس، ولو وجدت مثل هذه القيم الفكرية عند العلماء المسلمين الأوائل لما حققوا هذا المنجز التفسيري الذي ندرسه اليوم ولاكتفوا فيه بالرواية وتوقفوا عن العمل بالدراية.

4- أنه يجب دراسة النص القرآني في ذاته ومن حيث علاقاته الخاصة والعامة، من خلال استحضار سياق تنزيله وسياق تلقيه، لأننا إن حاولنا قصر أنظارنا على النص ذاته فقط، فسنكون قد حكمنا عليه بالانغلاق، وقضينا على مرونته من حيث علمنا ذلك أو جهلناه. وإن نحن درسناه كخطاب ضمن شبكته العلائقية الداخلية ومكوناته المقامية فإننا سنتلقاه حينها غضا طريا كأنما أنزل إلينا الآن، وسندرك أنه خطاب للمتلقي الكوني في كل زمان ومكان، لا يختص بمقام التنزيل الأول وحده، ولا بمقام تلقي المفسرين الأوائل وحدهم، بل يخصُّهما معا، فالله تعالى - لعلمه

بمقامات التلقي جميعا - جعل كلامه مناسبا لكل مقام. وعلى المتلقي أن يستعين بدوره على فهم كلام ربه وتأويله بما يبينه من تصورات للخطاب، بكل مكوناته النصية والسياقية.

5- أن للدراسات الحديثة والمعاصرة أثرا لا يخلو من فائدة في تحليل الخطابات، وأن إثراء عملية قراءة النصوص التراثية ونقدها باستثمار عدد كبير من العلوم الإنسانية وسرّ جملة من المعايير المنهجية كفيل بتحقيق مقارنة وسطية تنأى عن الانغلاق أو الانفتاح غير المنضبطين. ومن ثمّ مقاربتها مقارنة تفاعلية تنبض بالحياة ذاتا وزمانا ومكانا، وأنه ينتظر منها فوق ذلك فتح مسالك استشرافية أمام القارئ، تبدّد هاجس الاكتمال والانغلاق الذي أرّق مدارسَ سابقة.

6- أنه بات من الضرورة ربط المفاهيم التراثية بالمصطلحات والمناهج البحثية المعاصرة في اعتدال، وبطريقة تحقق - حسب اعتقادنا - نوعا من الحوار بين النصوص يؤسس لشكل من أشكال التنقيب عن الهوية المفقودة، ويفتح أفقا للامتداد، يرأب الصدع ويخفف من وطأة الضياع بين المعاصرة والانتماء.

7- أنه يجب إعادة الصياغة النظرية لمبادئ التحليل التي أفرزتها الدراسات المعاصرة، وذلك بإقحام المكوّن الثقافي الذي يشحن النظريات بخصائص فكرية إسلامية، تترتب عنها بالضرورة نتائج مغايرة. ذلك أن ما تم تكريسه من تعميم لنتائج الدرس الحديث والمعاصر ونمذجتهما دون اعتبار بتعدّد الثقافات لا يمكن أن يكون عائقا أمام بحث النتائج النظرية العامة في إطار من الخصوصية الثقافية، وربما الانتقال بعد ذلك إلى دراستها دراسة مقارنة داخل الأطر الثقافية المختلفة.

وأخيرا يتعين علينا القول بأن مكتبتنا العربية اليوم أحوج ما تكون إلى بحوث ودراسات تكرس إحياء التراث في غير انقطاع عن نصوص العصر، وتحفظ بالمقابل للتراث خصوصيته واستقلاليتها، باعتبار أن القطيعة بين النصوص تطرح أمام الباحثين أحد خيارين إما الانخراط في العصر والانقطاع عن التراث، أو الاتصال بالتراث والانقطاع عن العصر، وكلاهما مرفوض. أما ما ندعو

إليه من نمط قرائي فيوفر للباحث خيار الاتصال بنوعيه؛ اتصال موجود بالقوة يمثلته الانتماء، واتصال موجود بالفعل يمثلته الواقع والوجود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

### المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. أركون، مُحمّد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط1، 1999
2. التهانوي، مُحمّد بن علي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996
3. تسهر، اجنتس جولد، مذاهب التفسير الإسلامي، تر: عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1955
4. الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحق: صلاح بن مُحمّد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997
5. ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحق: أحمد مُحمّد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، دت
6. دايك، فان، علم النصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، القاهرة، مصر، ط1، 2001
7. دراجي، مُحمّد، الاستشراق والدراسات القرآنية، دار البلاغ للنش والتوزيع، الجزائر، دط، دت
8. ريكور، بول، النص والتأويل، تر: منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع3، 1988
9. الزرقاني، مُحمّد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995

10. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1957
11. الزركشي، مُجَّد بن إبراهيم اللؤلؤي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحق: مُجَّد ماضور، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1289هـ
12. أبو زيد، نصر حامد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجيا الوسطية في الإسلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، القاهرة، ط1، 2007
13. أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990
14. أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، مصر، ط2، 1994، ص94-99
15. السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في أصول النحو، تحق: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، دمشق، ط2، 2006
16. الشافعي، مُجَّد بن إدريس، الرسالة، تحق: أحمد مُجَّد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1، 1940
17. صحراوي، مسعود، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ع8، أفريل 2011
18. ابن عطية، عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحق: عبد السلام عبد الشافي مُجَّد. دار الكتب العلمية، ط2، 2008
19. الغزالي، أبو حامد، المستصفى من علم الأصول، تحق: مُجَّد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993
20. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 2000
21. مسلم بن الحجاج (أبو الحسن القشيري النيسابوري)، المسند الصحيح، تحق: مُجَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت

22. مطبقاتي، مازن صلاح، من آفاق الاستشراق الأمريكي المعاصر، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة، دط، دت
23. المناوي، مُجّد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1990
24. Voir: P.Charaudeau et D.Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, éd du Seuil, Paris, 1éd, 2002, p185-190
25. P.Charaudeau et D. Maingueneau, Op.cit, P201-202.

### الهوامش:

- 1 من أبرز القراءات الحديثة التي لفتت إليها الانتباه بما حملته من خروج عن النمط الفكري الإسلامي قراءات مُجّد أركون، ونصر حامد أبي زيد، ومُجّد عابد الجابري، ومُجّد شحرور، وحسن حنفي، وعبد المجيد الشرفي.
- 2 الغزالي، المستصفى، ص45
- 3 مُجّد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقق: أحمد مُجّد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1، 1940، ص13
- 4 ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقق: أحمد مُجّد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، دت، 42/1 وينظر: التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، 487/2
- 5 الجويني (أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله)، البرهان في أصول الفقه، تحقق: صلاح بن مُجّد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، 193/1
- 6 ينظر أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجيا الوسطية في الإسلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، القاهرة، ط1، 2007، ص22-23
- 7 بول ريكور، النص والتأويل، تر: منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع3، 1988، ص37
- 8 ينظر: مُجّد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1999، ص57-58
- 9 ابن عطية، المحرر الوجيز، 450/2
- 10 مُجّد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1990، ص269
- 11 ينظر: مسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، ص50-51
- 12 مسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، ص51

- 13 مسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، ص51
- 14 نفس المرجع، ص51
- 15 محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص57.
- 16 اجنتس جولد تسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، تر: عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1955، ص4، وص6 على التوالي.
- 17 محمد دراجي، الاستشراق والدراسات القرآنية، دار البلاغ للنش والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص67
- 18 ينظر: محمد دراجي، الاستشراق والدراسات القرآنية، ص9.
- 19 مازن صلاح مطبقاتي، من آفاق الاستشراق الأمريكي المعاصر، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة، دط، دت، ص48
- 20 محمد دراجي، الاستشراق والدراسات القرآنية، ص105.
- 21 Voir: P.Charaudeau et D.Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, éd du Seuil, Paris, 1éd, 2002, p185-190
- 22 P.Charaudeau et D. Maingueneau, Op.cit, P201-202.
- 23 فان دايك، علم النصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص128.
- 24 وهناك آراء في هذا الشأن في لفظ القرآن ومعناه، منها ما يخالف الكتاب والسنة والإجماع حسب الزرقاني، ومنها ما هو محض اجتهاد عقلي لا دليل عليه. ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، 44-46/1
- 25 ينظر: جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحق: عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، دمشق، ط2، 2006، فصل: "الاستدلال بكلام الرسول ﷺ"، ص43
- 26 الزركشي، البرهان، 459/1
- 27 إلا أن تأويل هذا الحديث هو: أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم كالنحو والأصول، فإنه وإن أصاب فقد أخطأ. ينظر: نفس المرجع، 41/1
- 28 نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990، ص14
- 29 نفس المرجع، 52/1
- 30 ينظر، نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، مصر، ط2، 1994، ص94-99
- 31 ينظر: مسلم، المسند الصحيح، 4/1836، (رقم الحديث: 2363).
- 32 ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 2000، ص168-169.

